قِراءَةٌ جديدة في

بُردة البُوصِيري وشِعْرِه

بقلم

علوي بن عبد القادر السقاف

المشرف العام على مؤسسة الدرر السنية

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

قِراءَةٌ جديدة في بُردة البُوصِيري وشِعْره

عَلَوي بن عبدالقادِر السَّقَّاف

قُصيدةُ البُردَة للبُوصِيري من القَصائد الشَّهيرة في المِديح النبويّ، هامَ فيها أهلُ التَّصوُّفِ؛ فشَرحوها، وشَطَّروها[١]، وخمَّسوها[٢]، وسَبَّعوها[٣]، وعارَضوها[٤]، ونَظَموا على نَهْجِها[٥]، حتى بلغتْ شُروحُها والكتُب التي تَكلَّمت عنها العَشَرات، ولم تَقتصرْ على اللُّغة العربيَّة، بل جاءتْ بلُغاتٍ مختلفةٍ[٦]، وغَلَوْا فيها، حتى جَعَل بعضُهم لأبياتِها بركةً خاصَّةً، وشفاءً من الأمراض[٧]! بل مِن كَتَبةِ الأحجبةِ والتَّمائم مَن يَستخدم لكلِّ مرضٍ أو حاجة بيتًا خاصًّا: فبيتٌ لمرَض الصرع، وبيتٌ للحِفظ من الحريق، وآخَر للتوفيق بين الزَّوْجين وهكذا[٨]! وما عَلِمنا هذا في آياتِ القرآنِ الكريم، ولا في الأحاديثِ النبويَّة!

وكانت البُردة- وما تزالُ- عند بعضِ الناس من الأوراد التي تُقرأ في الصَّباح والمساءِ في هَيبةٍ وخشوع[٩]، .....

---

(١) تَشطيرُ الشِّعرِ: أن يُضيفَ إلى كلِّ شَطْرٍ منه شَطرًا من عِندَه. ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/١١٩٩).

(٢) المخمَّس من الشِّعر: ما كانتْ أنصافُ مُقفَّاه مختلفةً تَجمعُها قافيةٌ واحدةٌ بعد بَيتينِ أو ثلاثةٍ أو أكثرَ، وهو ما كانَ على خَمْسَةِ أجزاء. ينظر: ((الصحاح)) للجواهري (٣/ ١١٣٤)، و((تاج العروس)) للزبيدي (١٦/ ٢٨).

(٣) المسَبَّع من العَرُوض: مَا بُنِيَ على سَبْعة أَجزَاء. ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (١/ ٥٠٦).

(٤) المعارضة الشِّعريَّة: هي محاكاةُ قصيدةٍ لأُخرى موضوعًا ووزنًا، وهي عند البُلغاءِ عِبارةٌ عن قولِ شيءٍ مِثل كلامِ الغير، سواء كان له وزنُ الشِّعر أو القافية، أو الرَّديف أو الصَّنعة. ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١٤٧٩).

(٥) انظر: (المدائح النبويَّة) لمحمود علي مكي (ص: ١١٩)، و(العمدة شرح البردة) للهيتمي (ص: ٥٣).

(٦) فاق عددُ شُروح البردة كثيرًا من كُتُب السُّنة، كصحيح مسلم، والكُتُب الأربعة، فضلًا عن غيرِها!

(٧) انظر: (العمدة شرح البُردة) (ص: ٤١)، قال مُحقِّقه: (ولا يزال الناسُ يَتبرَّكون بها في أقطاب الأرض؛ فكم ظهَر لها من أثرٍ في إبراءِ المرضَى من الذين اعتقدوا شرَفَها، وقَدروها قدْرَها، فكانت سببًا في شِفائهم، ونيل الخيرات والبركاتِ في قراءتها)!

(٨) انظر: (العمدة في إعراب البردة) لعبدالله جاجة (ص: ١٧)، و(المدائح النبويَّة في الأدب العربي) لزكي مبارك (ص: ١٤٢).

(٩) انظر: (المدائح النبويَّة في الأدب العربي) (ص: ١٤٢).

وأبياتُها تُستعمل إلى اليومِ في الرُّقَى، وتُتلَى عند الدفن(١٠)، وقد وضَعوا لها شُروطًا عند قراءتها، كالوضوءِ واستقبالِ القِبلة، وغيرِ ذلك(١١).

وزَعموا أنَّ سببَ تَسميتِها بالبُردة: أنَّ صاحبَها ألْقاها أمامَ النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في المنامِ فأَلْقَى عليه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بُردتَه كما ألْقاها على كَعبِ بن زُهيرٍ رضي الله عنه يَقظةً، مع أنَّ قِصَّة كعب بن زُهير هذه لم تَثبُت بإسنادٍ صحيحٍ أصلًا. وزَعَموا أنَّ ناظِمَها البُوصِيريَّ كان مريضًا بالفالجَ فشُفِي بها؛ ولذلك سُمِّيتْ بالبُرْءَة(١٢)، وبلغ غلوُّهم فيها أنْ زعَموا أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ شارَكَه في نَظمِها، وأنَّه كان يتمايلُ عند سماعِها، فلما انتهى الناظم إلى قوله:

فمَبْلَغُ العِلمِ فيه أنَّه بَشرٌ... توقَّف! فأضاف النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: وأنَّه خيرُ خَلقِ الله كُلِّهِم(١٣).

وهذا كلُّه كذبٌ وافتراءٌ على رسولِ الله صلَّى الله عليه وآله وسلَّمَ.

هذه القَصيدةُ انتقَد كثيرٌ من أهل العِلم أبياتًا مُعيَّنة فيها، تعدُّ من أكثرِ الأبيات غُلوًّا عندهم(١٤)، ودافَع عنها آخَرون من من دُعاة التَّصوُّف، وردُّوا ما وُجِّه إليها من نَقْدٍ، مُعلِّلين كلَّ بيت مُنتَقد فيها بما يَنفي عِلَّةَ النَّقد، ومِن هذه الأبيات المُنتقَدة– التي دافَع عنها هؤلاءِ وزَعموا أنَّ مُنتقِديها من أهلِ العِلم لم يُدرِكوا مُرادَه–

قولُه:

إنْ لَمْ يَكُــنْ فِي مَعَــادِي آخِــذًا بِيَــدِي فَضْــلًا وَإِلَّا فَقُــلْ يَا زَلَّــةَ القَــدَمِ

(١٠) انظر: (دائرة المعارف الإسلامية) (٥٢٨/٣).

(١١) انظر: (ديوان البوصيري لسيد كيلاني) (ص: ٢٩).

(١٢) انظر (حاشية الباجوري على البردة) (ص: ٤) وغيرها، وهذا ممَّا أطبقت عليه كتُبهم، لكن منهم مَن يقول: لفَّه ببُردته، ومنهم مَن يقول: ألقاها عليه.

(١٣) انظر لذلك: مُقدِّمة (بردة المديح المباركة) (ص: ١٥)، و(العمدة في إعراب البردة) (ص: ١٩).

(١٤) من هؤلاء: علَّامة اليمن محمَّد بن علي الشوكاني في (الدُّر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد) (ص: ٥٩)، وعلَّامة العراق محمود شكري الأُلوسي في (غاية الأماني في الرد على النبهاني) (٣٤٩/٢)، وكثير من المعاصِرين.

وقولُه:

يَا أَكْـرَمَ الخَلـقِ مَـا لي مَـن أَلُـوذُ بـه سِـواكَ عنـد حُلـولِ الحَـادِثِ العَمـمِ

وقوله:

فـإنَّ مِـن جُـودِك الـدُّنيا وضَـرَّتَها ومِـن عُلومِـك عِلـمَ اللَّـوحِ والقَلَـمِ

فأصبحَ كثيرٌ من النَّاس لا يَعرِفون غُلوَّ البُوصيري إلَّا من قصيدته البُردة، ولا يَعرِفون ما في البُردة من غلوٍّ إلَّا من هذه الأبيات، فإذا كانتْ هذه الأبيات مُفسَّرةً ومبرَّرةً، سَلِمتِ البردةُ وسَلِم البُوصيريُّ، فيَنتقل اللومُ إذًا إلى مُنتقديه المتشدِّدين!

والرَّجُل– كما يزعمون– إمامٌ عالمٌ عاملٌ، صالحٌ زاهدٌ....، وقصيدته البُردة زَهراءُ غَرَّاء، يَتبرَّك بها الناسُ، وفيها شفاءٌ لأمراضِهم ... إلى آخِره، وهذه الأوصافُ مذكورة في كُتُبهم(١٥).

فهل صحيحٌ أنَّ بُردة البُوصيري ليس فيها من الغُلوِّ إلَّا هذه الأبيات؟ بل هل صحيحٌ أنَّ البُوصيري إمامٌ عالمٌ عاملٌ، وقصائده– سواء البُردة أو غيرها– تخلو من الغُلوِّ؟! هذا ما أردتُ بيانَه في هذه المقالة.

أمَّا البُوصيري، فهو أبو عبد الله محمَّد بن سعيد بن حمَّاد الصِّنهاجي البُوصِيري، مِصريُّ النَّشأة، مغربيُّ الأصل، شاذليُّ الطريقة(١٦).

وُلِد سنة ٦٠٨هـ، وتُوفِّي سنة ٦٩٦هـ، فهو شاعِرٌ صنهاجي له شعرٌ غايةٌ في الحسن واللطافة عذب الألفاظ منسجم التركيب. تنقَّل بين القدس والمدينة ومكَّة، ثم عاد إلى مصر وعَمِلَ كاتبًا

---

(١٥) انظر على سبيل المِثال: (بردة المديح المباركة) (ص: ٩)، و(العمدة شرح البردة) (ص: ٤١).

(١٦) كان على صِلة بأبي الحسن الشاذليّ صاحِب الطريقة المشهورة عند الصوفيَّة، ولَمَّا مات لازم تلميذَه ووارثَ طريقته أبا العباس المرسي؛ يقول مادحًا الشاذليَّ وطريقتَه– كما في (ديوانه) (ص: ١٠٥):

إنَّ الإمـامَ الشـاذليَّ طريقُـه في الفضـلِ واضـحةٌ لعـين المهتـدي
فانقُـل ولـو قَـدَمًا علـى آثارِه فـإذا فَعلـتَ فـذاك آخِـذ باليـدِ
واسـلكْ طريـقَ مُحَمَّـدي شـريعة وحقيقـةً ومُحَمَّـدي المحتـدِ

ويقول مادحًا أبا العباس المرسي– كما في (ديوانه) (ص: ١٠٨):

فاصْـحَبْ أبا العبـاس أحمـدَ آخِـذًا يَـدَ عـارفٍ بـوعي النُّفـوسِ مُنجِّـدِ
فـإذا سَـقطتَ علـى الخَبـيرِ بـدائِها فاصـبرْ لـمُرِّ دوائِـه وتَجلَّـدِ

في الدولةِ ثم أصبح يعلِّمُ الصبيانَ القرآن، ولم يكُن عالِمًا قطُّ، ولم يَعُدَّه أحدٌ من المترجمين له في عِداد العلماء، بل عدُّوه من الشُّعراء[١٧] ومَن عدَّه كذلك من المعاصِرين لم يستطعْ أن يُثبت ذلك، وكان صوفيًّا على الطريقة الشاذليَّة[١٨].

والبُوصِيري **كان ممقوتًا؛ لإطلاقِ لِسانه في الناس بكلِّ قَبيحٍ، وذِكره لهم بالسُّوءِ في مجالس الأُمراء والوزراء**[١٩]، **سيِّئ الخُلُق مع زوجتِه وغيرِها**، شَحَّاذًا، مُضطربًا في شخصيتِه، فتارةً يَمدحُ النَّصارى ويذُمُّ اليهود، وتارةً يمدحُ اليهودَ؛ إرضاءً للنصارى، وتارة يذمُّ الاثنين معًا[٢٠]، وكان كثيرَ المدحِ للسَّلاطين؛ طمعًا فيما عندهم، وهذا ليس غريبًا على الشُّعراء، لكنَّه ليس مِن صنيعِ العُلماء، أضِفْ إلى ذلك أنَّ له أبياتًا كثيرةً في البُردة والهَمزيَّة وبقيَّة قَصائِده الواردةِ في دِيوانه، فيها من الغلوِّ ما يُصدِّق قولَ مُنتقديه فيه، وإليك جوانبَ ممَّا ذُكِر:

أمَّا سوءُ خُلقه مع زوجتِه، فقد ذمَّها وأشارَ إلى اتِّهامها بالفاحشةِ في قَصيدةٍ طويلةٍ، وفي القصيدةِ من الفُحش والفُجور والفِسق ما فيها، نسألُ الله السَّلامة والعافية؛ ومنها قولُه:

وَبَـلِـيَّـتِي عِـرسٌ بُـلِـيـتُ بمـقـتـهـا ... والـبَـعـلُ ممـقـوتٌ بـغـير قـيـامِ
جَعَلَـتْ بإفْلاسِـي وَشَـيْبِيَ حُجَّـة ... إذَا صِـرتُ لا خَـلْـفِـي ولا قُـدَّامـي
بلغَـتْ مِن الكِبَرِ العِتِيَّ ونُكِّسـت ... في الخَـلـقِ وهْـي صَـبـيَّـةُ الأَرحـامِ

---

(١٧) انظر: ((شذرات الذهب)) لابن العماد (٥/٤٣٢)، ((الوافي بالوفيات)) للصفدي (٣/١٠٥)، ((فوات الوفيات)) للكتبي (٣/٣٦٢)، ((المقفى الكبير)) للمقريزي (٥/٦٦١)، ((حسن المحاضرة)) للسيوطي (١/٥٧٠).

(١٨) تُفاجأ وأنت تقرأ لبعض المعاصرين الألقابَ التي تُطلَق عليه من مِثل: الإمام، العالِم، العامِل....، وبالَغ الهيتميُّ في مُقدِّمة شرحه للهمزية (١/١٠٥) في مدحه، فقال: (الشيخُ الإمام، العارِف الكامِل! الهُمام، المحقِّق، البليغ، الأديب، المدقِّق، إمام الشُّعراء، وأشعرُ العُلماء، وبليغُ الفصحاء، وأفصحُ الحُكماء.....)!

وقال فيه الحسنُ بن محمد الفاسي – وهو من المعاصرين– عند ترجمته في ((طبقات الشاذليَّة الكبرى)) (ص٩٩): (الإمام الرَّبَّاني، والعارف الصَّمداني، الأستاذ الفاضل، والملاذ الكامِل، شمس الملَّة، وبرهان الأمَّة، شيخ المحقِّقين، وملاذ أهل التَّمكين...بلغ رضِي الله عنه الغوثيةَ الكبرى، ودام له الاجتماعُ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام)!

(١٩) ذكَر ذلك المقريزيُّ في ((المقفى الكبير)) (٥/٦٦٤) عن اليعمري في ((مسالك الأبصار))، وقال أيضًا (٥/٦٦٩): وحُكي أنَّه كان قليلَ المعرفة بصناعة الكتابة.

(٢٠) له قصيدةٌ طويلةٌ رائعة سمَّاها (المخرج والمردود على النَّصارى واليهود) تدلُّ على أنه كان خبيرًا بهم وبمعتقداتهم. انظر: ((ديوان البوصيري)) للطباع (ص: ١٥٨).

إنْ زُرْتُها في العامِ يَوْمًا أنْتَجَتْ ... وَأَتَتْ لِسِتَّةِ أشْهُرٍ بِغُلامِ
أوَ هَذِهِ الأولادُ جاءتْ كُلُّها ... مِن فِعلِ شَيخٍ ليسَ بالقوَّامِ؟!
وأَظُنُّ أنَّهُمُ لِعُظْمِ بَلِيَّتي ... حَمَلتْ بِهِم لا شَكَّ في الأَحْلامِ
أوَ كُلَّ ما حَلِمتْ بِهِ حَمَلتْ بِهِ؟ ... مَن لي بأنَّ الناسَ غيرُ نِيامِ؟
يا لَيتَها كانتْ عَقِيمًا آيِسًا ... أوْ لَيْتَني مِن جُملةِ الخُدَّامِ
أوْ لَيْتَني مِن قَبلِ تَزويجي بها ... لوْ كُنتُ بِعتُ حَلالَها بحَرامِ!
أوْ لَيْتني بعضُ الَّذين عَرَفتُهم ... ممَّنْ يُحصِّنُ دِينَه بغُلامِ[٢١]!

ففي البيت الخامس يُشكِّك أنْ يكون أولادُه من كثرتهم أتَتْ بهم زوجتُه منه وهو شيخٌ ليس بالقوَّام! وفي التاسع تَمنَّى لو استبدلَ حلالها وهو الزواج بحرامٍ حتى لا يتحمَّلَ تبعةَ الأبناء، وفي العاشر تمنَّى لو أنَّه حصَّن دِينَه بغُلام بدلًا عن زوجةٍ، كبعض الذين يعرفهم! والعياذُ بالله.

والبُوصيري كان شَحَّاذًا يستخدمُ شِعرَه في استجداءِ ما عند الناس- وهذا ليس مِن صنيعِ العُلماءِ- فها هو يَشكُو للصَّاحب بهاء الدِّين عليّ بن محمَّد بن حنا حالَه وكثرةَ عِياله بقوله:

أيُّها الصَّاحبُ المؤمَّل أَدْعُو ... كَ دُعاءَ استغاثةٍ واستجارهْ
أَثْقَلَتْ ظَهري العِيالُ وقَدْ كنـ ... ـتُ زَمانًا بهم خفيفَ الكَارَهْ
وَلَوَ انِّي وَحْدي لكنتُ مُريدًا ... في رِباطٍ أَو عَابدًا في مَغارهْ
أَحسَبُ الزُّهد هيِّنًا وهْوَ حربٌ ... لستُ فيه ولا مِن النَّظَّارهْ
لا تَكِلْني إلى سِواكَ فأخيـ ... ـرُ زَماني لا يَمنحُون خِيارَهْ
ووجوهُ القُصَّادِ فيه حديدٌ ... وقلوبُ الأجوادِ فيه حِجارهْ
فإذا فازتْ كَفُّ حُرٍّ بِبُرٍّ ... فهو إمَّا بنَقضةٍ أو نشارهْ
إنَّ بَيتي يقولُ قدْ طالَ عَهْدي ... بدُخولِ التِّلِّيس[٢٢] لي والشِّكارهْ
وطَعامٍ قدْ كان يَعهَدُه النا ... سُ متاعًا لهم وللسَّيَّارهْ

---

(٢١) انظر: ((ديوان البوصيري)) للطباع (ص: ٢٢٦).

(٢٢) التِّلِّيسة: وِعاءٌ يُسَوَّى من الخُوص شِبه القُفة، وَهِي القِنِّينَة الَّتِي تكون عِنْد العَصَّارين، وَيَقُول عَامَّةُ مصر للجوالق الضَّخم (تَليس) بِفَتْح التَّاء. ينظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ٢٦٧)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٨٧).

فـالكوانيُن[٢٣] مـا تُعـابُ مـن الـبَر ... دِ بطبَّاخَـــــةٍ ولا شَـــــكَّارهْ
لا بِســـاطٌ ولا حَصـــيرٌ بدِهليـــ ... ـــزٍ ولا مَجلســـي ولا طَيَّـــارهْ[٢٤].

ويَطلُب من غيرِه كُنافةً في شهر الصوم، فيقول:

مـا أَكَلْنـا في ذا الصِّـيـامِ كُنـافَـه ... آهِ وا بُـعـدَهـا عـلـيـنـا مَسـافَـه
قـال قـومٌ إنَّ الـعِـمـادَ كـريمٌ ... قلـتُ هـذا عنـدي حـديـثُ خُرافَـه
أَنَا ضَـيـفٌ لـه وقـد مُـتُّ جُـوعًـا ... ليتَ شِـعري لِـمْ لا تُعَدُّ الضِّـيافَه
وهْـوَ إنْ يُـطْـعِـمِ الـطَّـعـامَ فـمَـا يُـطْـ ... ـعِمُـه إلَّا بسُـمعةٍ أو مَخافَـه[٢٥].

وقال يَهْجو أُناسًا سرَقوا حِمارتَه فغَلَا وبالَغَ في ذلك جِدًّا من أجْل حمارة! فقال:

أَرَى المسـتـخـدِمين مَشَـوْا جميعًـا ... عـلـى غـيرِ الصِّـراطِ المسـتـقـيمِ
مَـعـاشِـرُ لـو وَلُـوا جَـنَّـاتِ عَـدْن ... لصـارتْ مِـنـهـمُ نارَ الجَـحـيـمِ
فـمَـا مِـن بَـلـدةٍ إلَّا ومـنـهـم ... عـلـيـهـا كـلُّ شَـيـطـانٍ رَجـيـمِ
فـلـو كـانَ الـنُّـجـومُ لها رُجـومًـا ... لَقِـدْ خَلـتِ السَّـمـاءُ من النُّجومِ[٢٦].

وكانَ مُضطرِبَ الشخصيةِ يَسيرُ مع هوى نفْسه وطَمعِها، فلمَّا لَمْ يُهدِ له النصارى طعامًا في عِيدهم- عيد المسيح كما يزعمون- هَجاهم، ومدَحَ اليهودَ؛ نكايةً فيهم فقال:

يَـهـودُ بِـلـبِـيـس[٢٧] كُـلَّ عِـيـدٍ ... أفضـلُ عِـنـدي مـن الـنَّـصـارى

---

(٢٣) الكوانين: جمع (الكانون) وهو الموقد، والثَّقيل الوخم من النَّاس، والَّذي يجلس حتَّى يتَبَيَّن الأخبارَ والأحاديث؛ لينقلَها. ينظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩ / ٣٣٥)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٨٠١).

(٢٤) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ١١٩)، انظر إلى استغاثته ببهاء الدين في البيت الأول وإلى غلوه في البيت الخامس.

(٢٥) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ١٥٦).

(٢٦) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص٢٢٧)، وانظر الغلوَّ في البيت الثاني.

(٢٧) بِلْبِيسُ- بكَسْرِ الباءين، وسكون اللام، ويقال: بُلْبَيْس بضم الباء الأولى وفتح الثانية-: مدينة بِمصر بالشَّرقِيَّة بينها وبين فُسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، فتحت في سنة ١٨هـ أو ١٩هـ على يد عَمرِو بن العاص رضي الله عنه. ينظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (١/ ٤٧٩)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٥/ ٤٦٦).

أَمَـا تـرَى الـبَـغْـلَ وَهْـوَ بـغـلٌ في فَضـلِـه يَـفضُـلُ الحِـمـارَا[٢٨]

فلمَّا هدَّده النصارى تراجَع ومدحَهم وذمَّ اليهود، فقال:

مَـا لـلـنَّصـارى إليَّ ذنـبٌ وإنمـا الـذَّنـبُ لـلـيـهـودِ
وكـيـفَ تَـفضـيـلُـهـم وفـيـهـم سِـرُّ الخـنـازيـرِ والـقُـرودِ[٢٩].

أمَّا مدحُه لسلاطين زمانِه مستجديًا ما عندهم، فحدِّث ولا حرجَ! ودِيوانه مليءٌ بذلك[٣٠] ولا تَخلو كثيرٌ من قَصائدِه من الغلوِّ في الممدوحِ، وإليك نَزرًا يسيرًا منها:

فمِن ذلك قولُه يمدحُ الوزيرَ زينَ الدِّين الصاحبي بقوله:

أَهـلُ التُّقى والعِلم أهـلُ السُّـؤددِ فـأَخـو السِّـيـادةِ أحمـدُ بـنُ مُحَمَّـدِ
الصَّاحبُ بنُ الصَّاحبِ بنِ الصَّاحِبِ الـ ـحَبرُ الهُمامُ السَّـيِّدُ ابنُ السَّـيِّدِ
لا تُشـرِكـنَّ بـه امـرأً في وصْـفِـه فتكونَ قـد خـالفـتَ كُـلَّ مُوحِّـدِ[٣١].

وفي البيتِ الأخير غلوٌّ ظاهرٌ.

ويقولُ مادحًا الصَّاحبَ بهاء الدِّين، ويَطلبُه حمارةً، ويذمُّ آخرَ مُقرَّبًا من الصاحب؛ حَسدًا له:

صـاحِـبٌ لا يـزالُ بالجُـودِ والإفـ ـضَـالِ طلقَ اليَـدينِ حُلوَ العِبـارهْ
كَـم هَـدَانا مـن فضـلِـه بـكِـتـابٍ مُـعـجـزٍ مِـن عُـلـومِـه بأَثَارهْ
إنَّمـا يَـذكُـر الـعـطـيـةَ مَـن كـا نَـتْ عَـطـايـاهُ تَارةً بَـعـدَ تَارهْ
سَـيِّـدي أنـتَ نُصـرتِي كُـلَّـمـا شَـنَّ عـليَّ الزمـان بالـفـقـرِ غَـارهْ!
شـابَ رأسـي ومـا رأسـتُ كـأنِّي زامِـرُ الحـيِّ أو صـغـيرُ الحـارَهْ

---

(٢٨) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ١٤٩).

(٢٩) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص١١٥).

(٣٠) انظر الصفحات: ٨١، ٨٤، ١١٢، ١١٦، ١٢٠، ١٢٨، ١٤٠، ١٤٧، ١٥٠، ٢٢٨، وغيرها من ((ديوان البوصيري)) للطباع.

(٣١) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ١١٢)، وانظر الغلوَّ في البيت الأخير.

وابـنُ عِـمـرانَ وهْـوَ شَـــرٌّ مـتـاع ... لـلـوَرَى في بِـطـانـةٍ وظِـهـارَهْ
حَسَّـــن الـقُـربُ مـنـكـم قُـبـحَ ذِكـرَا ... هُ كتَحسـينِ المِســـكِ ذِكْرَ الفَـارَهْ
فـهْـوَ في المـدحِ قَـطـرةٌ مـن سَـــحـابي ... وهـو في الهَـجْـوِ مِـن زِنادي شَـــرارَهْ
مـا لـه مِـيـزةٌ عـلـيَّ سِـــوى أنَّ ... لـه بـغـلـةً ومـا لي حِـمـارهْ[٣٢].

ويَمدحُه مَرَّةً أخرى ويشكو له حالَه فيقول:

يَا أيُّهـــا المـــولى الـــوزيرُ الـــذي ... أيَّامُـــــه طائِعـــــةٌ أَمْـــــرَهْ!
ومَـــن لـــه مـــنـــزلـــةٌ في الـعُـلا ... تَـكِـلُّ عـن أوصـــافِـهـا الـفِـكْـرَه
أَخلاقُـــك الغُـــرُّ دَعتْنَـــا إلى الـــ ... إدلاءِ في القـــولِ علـــى غِـــرَّه
إليـــك نَشْـــكُو حالَنـــا إنَّنـــا ... عائلـــةٌ في غايـــةِ الكَثْـــرَه
صـــاموا مـــع النَّـــاسِ ولكِـــنَّهم ... كـــانوا لِمَـــن يُبصِـــرهم عِـــبْرَه
فـــارحَمْهمُ إنِ أَبصـــروا كَعكـــةً ... في يـــدِ طِفـــلٍ أو رَأَوْا تَمْـــرَه
تَشْـــخَصُ أَبصـــارُهم نَحوَهـــا ... بِشَـــهْقةٍ تَتبعُهـــا زَفْـــرَه

وقد اشتَهَر البُوصيريُّ بشِعرِه في المدائحِ النبويَّة، وهو مِن أرْقَى الشِّعر وأجودِه لولا غُلوٌّ فيه، ومَن قرأ قصائدَه مثل: البُردة الميميَّة، والقصيدة الهمزيَّة، وبقيَّة قصائده في دِيوانه- ظهَر له اطِّرادُ الرَّجُل في غلوِّه، وأبياتُه المجمَلة المحتمِلة لأكثرَ من معنًى في قصيدةٍ، تُفسِّرها أبياتٌ أخرى في قصيدةٍ أُخرى؛ فلا مجالَ لتبرئتِه منه، وهاكم بعضَ الأمثلة:

قولُه في البُردة:

فَـإنَّ مِـن جُـودِك الـدُّنـيـا وضَـــرَّتَهَـا ... ومِـن عُـلـومِـك عِـلمَ اللَّـوحِ والقَـلـمِ[٣٣]

---

(٣٢) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ١١٧).

(٣٣) هناك من أمور الغيبِ ما أَطْلعه الله على مَن ارتضاهم مِن رُسله، ومنهم نبيُّنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، لكن البُوصيري يزعم أنَّ ما في اللوح المحفوظِ بعضٌ ممَّا عندَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقوله: (ومِن عُلومك) مِن هنا: للتبعيض؛ ولذلك يقول الهيتميُّ شارحًا هذا البيت: (ووجه كون عِلم اللَّوحِ المحفوظ من بَعضِ علومه صلَّى الله عليه وسلَّم: أنَّ الله أَطْلعه ليلةَ الإسراء على جميعِ ما في اللَّوح المحفوظ، وزاده عُلومًا أُخر كالأسرارِ المتعلِّقة بذاته سبحانه وتعالى وصِفاته)) = = انظر: ((العمدة شرح البردة)) (ص: ٦٩٩).

يُؤيِّده البيتُ الخامِسُ من الهمزيَّة:

لَـك ذاتُ العُلومِ مِن عـالِمِ الغيـــــــــــــــــبِ ومنهـا لآدَمَ الأسمـاءُ

لذلك قال الهيتميُّ في شرح هذا البيت:

(إنَّ آدَمَ لم يَحصُل له من العلوم إلَّا مجرَّدُ العِلم من أسمائها، وأنَّ الحاصل لنبيِّنا هو العلمُ بحقائقها، ومُسمَّياتها، ولا ريبَ أنَّ العلمَ بهذا أعْلى وأجلُّ، من العِلم بمُجرَّد أسمائها؛ لأنَّها إنما يُؤتَى بها لتبيين المسميَّات؛ فهي المقصودةُ بالذات، وتِلك بالوسيلة، وشتَّان ما بينهما، ونظير ذلك أنَّ المقصود مِن خَلْقِ آدمَ إنما هو خلقُ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ من صُلبه، فهو المقصودُ بطريق الذَّات، وآدَم بطريقِ الوسيلة، ومِن ثَمَّ قال بعضُ المحقِّقين: إنما سجَدَ الملائكةُ لأجْلِ نُورِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ الذي في جَبينه) (٣٤)!

نعوذ بالله من الضلال.

والبُوصيريُّ كغيره من غُلاة الصوفيَّة الذين يَعتقدون أنَّ الدنيا بمَن فيها لم تُخْلَقْ إلَّا من أجلِ محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ونورِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا ذَكَرَه في البُردة وغيرها؛ قال في البُردة:

وكَيفَ تَـدْعو إلى الـدُّنيـا ضَـــرورةُ منْ لـولاه لم تَخْـرُجِ الـدُّنـيـا مـن الـعَـدمِ

وقال:

وكـلُّ آيٍ أَتَـى الـرُّسْـــلُ الـكِرامُ بهـا فـإنَّمـا اتَّصـــلـــتْ مِـن نُـورِهِ بِهِـمِ

وقال:

فـاقَ الـنَّـبـيِّـينَ في خَـلْـقٍ وفي خُـلُـقٍ ولم يُـدانـوه في عِـلـمٍ ولا كَـرمِ
وكُـلُّـهـم مِـن رَســولِ اللهِ مُـلـتـمِـسٌ غَرفًـا مِنَ البَحرِ أَوْ رَشـفًـا مِن الـدِّيَمِ

ولَمَّا حارَ بعضُهم وأراد أن يخرُجَ من هذا المأزق أتَى بما يُضحك، فقال: (قال الشُّراح: المرادُ باللَّوح ما يَكتُب الناس عليه، وبالقَلَم: ما يَكتُبون به، فكأنَّه قال: ومِن عُلومك عِلْم الناس الذي يَكتُبونه بأقلامِهم في ألواحِهم). انظر: ((نحت حديد الباطل وبرده)) لداود النقشبندي (ص: ٣٩)، ((البلسم المريح من شِفاء القلب الجريح)) لعمر كامل (ص: ١٤).

(٣٤) انظر: (المنح المكية شرح الهمزية للهيتمي) (١/١٤٦).

وقال في الهمزيَّة مؤكدًا هذا المعنى:

كـلُّ فَضـــلٍ في الـعـالَـمِـين فَـمِـنْ فَضـــلِ النَّبِي اســـتعـارَه الفُضـــلاء

قال الهيتميُّ في شرح البُردة: (فإنَّما اتَّصلتْ مِن نُورِه بِهم، أي: وصلتْ منه إليهم بطريق الاستمدادِ؛ وذلك لأنَّ نورَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان مخلوقًا قبلَ آدَمَ صلوات الله وسلامُه عليه، بل قبل سائرِ المخلوقات من السَّموات وما فيها والأرض وما عليها وغير ذلك)[٣٥]، وهذا مِن خُرافات الصوفيَّة وخُزعبلاتهم؛ فالنبيُّ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وَلَدُ آدَمَ، وخُلق بعدَ آدَمَ؛ فكيفَ يكونُ نورُه خُلِق قَبلَه؟! عليه صلواتُ ربِّي وسلامُه.

وقال في شرح الهمزيَّة: (لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ الممدُّ لهم؛ إذ هو الوارثُ للحضرةِ الإلهيَّة، والمستمدُّ منها بلا واسطةٍ دون غَيرِه؛ فإنه لا يستمدُّ منها إلَّا بواسطتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلا يصلُ لكامِل شيءٍ إلَّا وهو مِن بعض مددِه وعلى يديه، فآياتُ كلِّ نبيٍّ إنما هي مُقتبسَةٌ من نوره؛ لأنَّه كالشمس، وهم كالكواكب، فهي غيرُ مضيئةٍ بذاتها وإنَّما هي مُستمدَّة من نورِ الشمس، فإذا غابتْ أظهرتْ أنوارَها، فهم قبل وجودِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إنما كانوا يُظهِرون فضلَه، وأنوارُهم مُستمَدَّة من نورِه الفائض، ومَددِه الواسع)[٣٦]، وهذا كلامٌ لا دليلَ عليه لا مِن النَّقل ولا العقل، ولا زِمامَ له ولا خِطام!

وفي البُردة استجارة واستغاثة بالنبي صلَّى الله عليه وسلَّمَ وذلك عند قوله:

مَا ســـاَمَني الدهرُ ضَـيمًا واســتجرتُ به إلَّا ونِـلـتُ جـوارًا مـنـه لم يُضَـــم
ولا الْتمســـــتُ غِنَى الـدَّارين مِن يَـدِه إلَّا التمســـتُ النَّدى مِن خَيرِ مُسْـتَلِم

ومعنى ذلك: ما ظَلَمَني أهلُ الدَّهر في وقتٍ من الأوقاتِ وطلبتُ مِن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يُدخِلَني في جوارِه؛ ليحميني مِن ضَيمِ الدَّهر إلا وقرَّبني منه[٣٧].

والاستغاثةُ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كثيرةٌ في شِعر البُوصيري- وهي أشنعُ مِن التوسُّل، وإنْ خلَط بينهما بعضُ الناس؛ جَهلًا أو تلبيسًا.

---

(٣٥) انظر: ((العمدة شرح البردة)) للهيتمي (ص: ٢٨٩).
(٣٦) انظر: ((المنح المكيَّة شرح الهمزيَّة)) (٢/٦٥٢).
(٣٧) انظر: ((العمدة شرح البردة)) (ص: ٤١١-٤١٣).

ولم تقتصرْ أبياتُ الغلوِّ في شِعر البُوصيريِّ على البُردة فقط، بل في غيرها ما هو أكثرُ غلوًّا، ومِن ذلك قوله:

يا نَبِيَّ الهُدى استغاثةُ مَلْهُو ... فٍ أَضرَّتْ بحالِه الحَوباءُ
يَدَّعي الحبَّ وهو يأمُر بالسو ... ءِ ومَن لي أن تَصْدُقَ الرغباءُ

إلى أن قال:

هَذِه عِلَّتي وأنتَ طبيبي ... ليس يَخفَى عليك في القلبِ داءُ
ومِن الفوزِ أن أَبُثَّكَ شَكوى ... هي شَكوى إليك وهي اقتِضاءُ[٣٨]

وأشدُّ مِن ذلك دُعاؤه النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يَصفحَ عنه، وأن يَقبلَ عُذرَه بقوله:

يا مَن خَزائنُ جُودِهِ مملوءةٌ ... كَرمًا وبابُ عطائِه مفتوحُ
نَدْعوك عن فَقرٍ إليك وحاجةٍ ... ومَجالُ فضلِك للعُفَاةِ فسيحُ
فاصفحْ عن العبدِ المسيءِ تَكرُّمًا ... إنَّ الكريمَ عن المسيءِ صَفوحُ
واقبلْ رَسولَ اللهِ عُذرَ مقصِّرٍ ... هو إنْ قَبِلتَ بمدحِكَ الممدوحُ
في كلِّ وادٍ من صِفاتِك هائمٌ ... وبكُلِّ سرٍّ مِن نداك سَبوحُ[٣٩]

ومن ذلك: غُلوُّه في الشَّريفةِ نَفيسةَ بنتِ الحَسنِ بنِ زيدِ بنِ الحسنِ بنِ عليٍّ رضي الله عنهم، بقوله:

سَليلةُ خَيرِ العالَمِين "نَفيسةٌ" ... سَمَتْ بِكِ أَعراقٌ وطابتْ مَحاتِدُ[٤٠]
إذا جَحدتْ شَمسُ النهارِ ضِياءَها ... ففضلُكِ لم يَجحَدْه في الناسِ جاحدُ
بآبائِك الأطهارِ زُيِّنتِ العُلا ... فحَبَّاتُ عِقدِ المجدِ مِنهم فَرائدُ
ورثتِ صفاتِ المصطفى وعُلومَه ... فَفَضلُكما لولَا النُّبوَّةُ واحدُ![٤١]

---

(٣٨) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ٦٠).

(٣٩) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ٩٠).

(٤٠) محاتد: جمع مَحْتِد، وهو: الأَصْل والطبعُ؛ يُقال: إنَّه لكريم المحتِدِ، ورجعَ إلى مَحتِدِه. ينظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ١٣٩)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٥٤).

(٤١) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ٩٢).

هذا، وفي البُردةِ أخطاءٌ أخرى نمرُّ عليها مرورًا سريعًا حتى لا يظنَّ ظانٌّ أنَّها مقصورةٌ على بَيتينِ أو ثلاثة، فمِن ذلك:

قوله:

أَقْسَمْتُ بالقَمرِ المنشقِّ إنَّ لـه مِن قَلبِه نِسبةً مَبرُورَةَ القَسمِ

وهذا قَسَم بغيرِ الله تعالى لا يجوزُ.

وقوله:

دَع ما ادَّعَتهُ النَّصارَى في نَبِيِّهِمِ واحكُمْ بما شِئتَ مَدحًا فيه واحتَكِمِ

وكأنَّ الناظمَ يقول: امدَحْه- يَعني: نَبيَّنا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم- بما شِئتَ من المدحِ، لكن لا يصل بك المدحُ إلى تأليهه كما فعلتِ النَّصارى مع عيسى عليه الصَّلاة والسَّلام، وهذا باطلٌ، وليس معنى حديث: ((لا تُطْرُوني كما أَطرتِ النصارى عيسى ابنَ مريم))، أي: أَطروني، لكن لا يَصِل إطراؤكم إلى ما وصَلَ إليه النصارى مِن أنَّه ابنُ الله، وثالثُ ثلاثة! وهذا خَطأٌ، والمعنى الصَّحيح للحَديث: لا تُبالغوا في إطرائي كما بالَغَ النَّصارى في إطراءِ نبيِّهم حتى أدَّاهم ذلك إلى تأليهه.

ومن ذلك قولُه:

فَإِنَّ لي ذِمَّةً منه بتَسمِيَتِي مُحَمَّدًا وَهْوَ أَوفَى الخَلقِ بالذِّمَمِ

وهذا غيرُ صحيح، فليس كلُّ مَن تَسمَّى بمحمَّدٍ صارتْ له ذِمَّةٌ بهذه التسمية؛ فما أكثرَ مَن تَسمَّى بمحمد وهو في عِداد الفسقة! ولكن للأسف تجِد كثيرًا منهم يُردِّدونَ هذا البيت وغيرَه وهم يَظنُّون صِحَّةَ معناه.

وقوله أيضًا:

لا طِيبَ يَعدِلُ تُربًا ضَمَّ أَعظُمَهُ طُوبى لمُنتَشِقٍ منه ومُلتَثِمِ

الانتشاق: الشم، والالتثام: التعفُّر أو التَّقبيل، والنَّاظم يَدْعو لأنْ نَنتشقَ ونلتثمَ تُرابَ قبرِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهذا من الغلوِّ أيضًا.

والحاصِل: أنَّ البُوصيريَّ كان من غُلاة الصُّوفيَّة الشاذليَّة، ولا يَنفع الذين دافَعوا عنه الْتماسُهم العُذرَ له في بعضِ الأبيات أو توجيهها وجهةً حَسنةً، فهذا إنَّما يُقال لِمَن كان سليمَ المعتقَدِ، سليمَ المنهجِ والطريقةِ، ثم تزِلُّ قَدمُه في مسألةٍ أو مسألتين، فهذا يُلتمس له العذرُ فيها، أمَّا مَن كانتْ هذه طريقتَه، وهذا مُعتقدَه، وهذا دَيدنَه، فمهما الْتمَسْنا له العذرَ في بيتٍ أو بيتين، فماذا عن الباقي؟! وماذا عن شُرَّاح هذه القصائدِ الذين يُؤَكِّدون هذه المعاني، ويَتتابعون عليها في شَرْح قصائدِه؟!

وهذا كلُّه لا يَمنعنا أن نُشيدَ بقُوَّةِ شِعْره وجزالتِه، سواء كان من شِعر مديحِ المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أو ما فيه مِن حِكَمٍ ودُرَرٍ؛ فمِن مليحِ المديحِ: قولُه في البُردة:

أَكْرِمْ بِخَلْقِ نَبِيٍّ زانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مُشْتَمِلٌ بالبِشْرِ مُتَّسِمِ

كالزَّهرِ في تَرَفٍ والبَدرِ في شَرَفٍ ... والبَحرِ في كَرَمٍ والدَّهرِ في هِمَمِ

وقوله واصفًا الصَّحابة رضي الله عنهم:

هُمُ الجِبالُ فَسَلْ عَنهُم مُصَادِمَهُم ... مَاذا لَقِي مِنهمُ في كُلِّ مُصطَدَمِ

وَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أُحُدَا ... فُصولُ حَتْفٍ لَهم أَدْهى مِنَ الوَخَمِ

كأَنَّهُم في ظُهورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبًى ... مِن شِدَّةِ الحَزْمِ لا مِن شَدَّةِ الحُزُمِ

وفيها من الحِكَم الكثير، كمِثل قوله:

والنَّفسُ كالطِّفلِ إنْ تُهمِلْه شَبَّ على ... حُبِّ الرَّضاعِ وإنْ تَفْطِمْه يَنفَطِمِ

فاصرِفْ هواها وحاذِرْ أن تُولِّيَه ... إنَّ الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ[٤٢]

وراعِها وهْي في الأَعمالِ سائِمةٌ ... وإنْ هي اسْتَحْلَتِ المرعى فلا تَسِمِ

كم حسَّنَتْ لَذَّةً للمَرءِ قاتلةً ... من حيثُ لم يَدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ

قد تُنكِرُ العَينُ ضوءَ الشَّمسِ مِن رَمَدٍ ... ويُنكِرُ الفمُّ طَعْمَ الماءِ مِن سَقَمِ

واسْتَفْرِغ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنٍ قد امْتَلأَتْ ... مِنَ المَحارِمِ وَالْزَمْ حِمْيَةَ النَّدَمِ

---

(٤٢) يُصْمِ: يَقْتُل، مِن أَصْمَى الصَّيدَ إذا رماه فقتَلَه وهو يراه.
أو يَصِمِ: يُعيب من الوَصْم، وهو العيبُ والعار. ينظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٥٢) (٦/ ٢٤٠٤).

وخَالِفِ النَّفسَ والشَّـــيطانَ واعصِـــهِما وإنْ هُمَا مَحَّضـــاكَ النُّصْـــحَ فاتَّهِـــمِ
ولا تُطِعْ منهما خَصْـــمًا ولا حَكَمًـــا فـأَنـتَ تَعرِفُ كَيـدَ الخَصـــمِ والحَكَمِ

ومِن بديعِ شِعره:

ذَهـبَ الشَّـبابُ وسـوفَ أذهـبُ مِثلَمـا ذهَـــبَ الشـــبابُ ومـــا امـــرؤٌ بمخلَّـــدِ
إنَّ الفنـــاءَ لكُـــلِّ حـــيٍّ غايـــةٌ مَحتومـــةٌ إنْ لم يكُـــن فكَـــأنْ قَـــدِ[٤٣]

هذا، وأسأل الله عزَّ وجلَّ أن يَهدي ضالَّ المؤمنين، وأن يَردَّه إلى الحقِّ ردًّا جميلًا.

وصلَّى الله وسلَّم على حَبيبِنا وسيِّدنا ونبيِّنا مُحمَّدٍ عبدِ اللهِ ورسولِه، وعلى آلِه وصَحْبِه أجمعين،،

(٤٣) انظر: ((ديوان البوصيري)) (ص: ١٠٣).